الإشاريّات التداولية ومقاصدها في شعر الجواهريّ

أ. م. د. عماد فاضل عبد

كلية العلوم الإسلامية – جامعة بابل

Pragmatic connotations and their purposes in Al-Jawahiri's poetry

Asst. Prof. Dr. Imad Fadel Abd

College of Islamic Sciences - University of Babylon

ملخص البحث

تُعنى هذه الدراسة بتتبع الإشاريّات التداولية في مدونة الجواهري الشعرية، وتصنيفها في ضوء ما وضعه العلماء من تقسيمات لها، ومن ثمّ محاولة الوقوف على مرجعيّاتها الخطابية للكشف عن المقاصد التي من أجلها استعملها الشاعر في خطاباته الشعرية، مع بيان قيمها التداولية، على وفق المنهجين الوصفي والتحليلي المستندين إلى معطيات الدرس التداولي.

الكلمات المفتاحية: الإشاريّات، التداولية، الجواهري، المتكلّم، المتلقي، التواصل

Abstract

This study is concerned with tracing the pragmatic connotations in Al-Jawahiri's poetic blog, and classifying them in the light of the divisions that scholars have established for them. Then it tries to stand on their rhetorical references to reveal the purposes for which the poet used them in his poetic discourses, with an indication of their pragmatic values, according to the descriptive analytical approach, based on the data of the pragmatic lesson.

Keywords: The deliberative, signs, Al-Jawahiri, talker, receiver, communication

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الخلق أجمعين محمد وآله الطيّبين الطاهرين. وبعد..

تُعد الإشاريّات من مباحث الدرس التداولي الذي يُعنى بأنظمة التواصل بين مستعملي اللغة. وتعالج التداولية – كما هو معلوم– العديد من الظواهر اللغوية، وتعمل على حلّ أسرار العملية التواصلية؛ للكشف عن قصدية المتكلّم في ضوء السّياق التداولي الذي انتظمت فيه عناصر الكلام.

تسهم الإشاريّات في تكوين الخطاب وربط عناصره اللغوية بمرجعيّاتها السّياقية، وهذا من شأنه أن يزيد من تفاعل العملية التواصلية بين المتكلّم والمخاطب، وتجعلها حيّة ضمن شروط التلقي المختلفة

من هنا وقع الاختيار على دراسة هذه العناصر ومحاولة فكّ شفراتها.

أمّا الدافع وراء اختار مدونة الجواهري الشعرية فيرجع إلى أكثر من سبب لعلّ أهمّها مكانة الشاعر نفسه، والقيمة الأدبية والفنية لخطابه الشعري وغزارته، ما يمثل مادة يمكن أن تستوف عناصر البحث، وتعطي صورة متكاملة عن القيمة التداولية للإشاريّات في الخطاب الشعري.

وفي ضوء ما تقدّم جاء هذا البحث الذي وسم بـ (الإشاريّات التداولية ومقاصدها في شعر الجواهري). ولغرض الوقوف على تجلّيات البحث ومقاصده فقد قسم على تمهيد وخمسة مطالب ثم خاتمة اشتملت على أهم ما وقف عليه البحث من نتائج.

التمهيد: مفهوم الإشاريّات وأنواعها

أولًا: مفهوم الإشاريّات

١ – الإشارة لغة

الإشارة مصدر للأصل المعجمي (شور)، قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ): ((الشين والواو والراء

أصلان مطّردان، الأول منهما: إبداء شيء وإظهاره وعرضه، والآخر: أخذ الشيء))[١].

وقال ابن منظور (ت٧١١ه): ((أشار عليه بأمر كذا: أمره به... وأشار الرجل يشير إشارة إذا أومأ بيديه، ويقال: شَوَّرْتَ إليه بيدي وأَشَرْتُ إليه، أي: لوّحت إليه وألحت أيضًا، وأشار إليه باليد: أومأ، وأشار عليه بالرأيِ. وأشارَ يُشِيرُ إذا ما وجّه الرأي))[٢].

٢- الإشارة اصطلاحًا

مرادنا من الاصطلاح هنا هو اصطلاح المنظّرين في مجال الدراسات التداولية، كون الإشاريّات تمثّل أحد الأركان التي قامت عليها التداولية.

فالإشاريّات عند هؤلاء تعني علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلّا في سياق الخطاب التداولي؛ لأنّها خالية من أي معنى في ذاتها، فبالرغم من ارتباطها بمرجع إلّا أنّ مرجعها غير ثابت[٣]. أو هي كلمات أو تعبيرات تعتمد في بيان مدلولاتها على السّياق الذي تستعمل فيه، ولا يمكن انتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه[٤]، أي أنّ دلالاتها متغيّرة والسّياق التواصلي هو الكاشف عن تلك الدلالات، من هنا أطلق عليها بعض الباحثين: المعيّنات أو المتحولات[٥]،

وذهب آخرون إلى أنّها ((فعل يستعمل فيه متكلّم أو كاتب صيغًا لغوية؛ لتمكين مستمع أو قارئ تحديد شيء ما))[٦]، وبهذا تظهر وظيفتها التداولية إذ تمكّن المتلقي من الوقوف على مراد المتكلّم عند تحديد مرجعيّاتها.

وفصّل بعضهم القول في تعريفها، فهي عنده تعني: ((كلّ العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة إلى المقام من حيث وجود الذات المتكلّمة أو الزمن أو المكان حيث ينجز الملفوظ والذي يرتبط به معناه))[٧]، فهي إشارات تحيل إلى مكوّنات السّياق

الاتصالي وهو المتكلّم والسامع وزمن المنطوق ومكانه ونحو ذلك، أي أنّها تعبيرات غير مستقلة عن سياقها[٨].

وعلى هذا فالإشاريّات عند هؤلاء ((مصطلح يشير إلى موقع وهوية الأشخاص والأشياء والأحداث والعمليات والأنشطة التي تحدّث عنها))[٩]. على أنّ هذا الدور للإشاريّات لا يقتصر على الظاهر منها، بل يتجاوز إلى ما هو مستقرّ في البنية العميقة للخطاب التداولي[١٠].

وتعدّ الإشاريّات من أهم العوامل في بناء الخطاب اتساقًا وانسجامًا، فلا يخلو الكلام منها؛ لدورها النحوي ووظائفها الدلالية والتداولية[١١]، وهي مع هذا تعدّ نمطًا من أنماط الاقتصاد اللغوي؛ لما تختزله – بإحالاتها– من معان تكون كاشفة عن دلالات الخطاب، وقد ألمح إلى ذلك قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) بقوله: ((الإشارة: وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملًا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليه))[١٢].

وفي ضوء ما تقدّم يمكن أن نخلص – بصورة عامّة – إلى أنّ الإشاريّات تعني ألفاظًا مبهمة لا تظهر لها دلالة إلّا في ضوء سياق النصّ التواصلي الذي تنتج فيه، فضلًا عن كونها جزءًا رئيسيًّا في صناعة المعنى في ظلّ التفاعل السياقي.

ولابدّ من القول: إنّ هذه الإشاريّات تتنوّع وتتلوّن في خطاب المتكلّم المبدع المثقّف في حقول معرفية بينية، ممّا تمنح المتلقّي شَكْلًا من الخبرات والأفكار والأحداث فضلًا عن هُويّات الأشخاص.

ثانيًا: أنواع الإشاريّات

ذهب أغلب الباحثين إلى أنّ الإشاريّات على خمسة أنواع، إشاريّات شخصية وإشاريّات زمانية وإشاريّات مكانية وإشاريّات اجتماعية وإشاريّات خطابية أو نصية، فيما اقتصر بعضهم

على الثلاثة الأولى، وآخرون على أربع منها مستثنين الخطابية[١٣].

١- الإشاريّات الشخصية

المقصود بها - بشكل عام- الإشاريّات الدالة على المتكلّم أو المخاطب أو الغائب، أي الضمائر الدالّة - بصورة عامة - على هذه الذوات، ذلك أنّ الذات المتلفظة تدلّ على المرسِل في السّياق، فقد تصدر خطابات الذات متعددة عن شخص واحد، فذاته المتلفظة تتغيّر بتغيّر السّياق الذي تُلفظ فيه، وهذه الذات هي محور التلفظ في الخطاب تداوليًّا[١٤]، على أنّنا يجب أن نلحظ أنّ هذه الضمائر هي ألفاظ مبهمة، وإنّما تحدد دلالاتها في ضوء الأسماء التي تعود تلك الضمائر عليها وتستعمل بديلًا عنها[١٥].

ويمكن القول إن المقصد من الإشاريّات الشخصية هو العمل على ربط الشخصيّات المتولّدة منها بالمجتمع بوصفها (الشخصيّات) عناصر متفاعلة مع المجتمع وحاضرة ومندمجة فيه.

وتُعدّ ضمائر الحاضر من أوضح العناصر الإشارية الشخصية؛ لأنّ مرجعها يعتمد اعتمادًا تامًّا على السّياق الذي تستعمل فيه، بخلاف ضمائر الغائب فإنّها لا تدخل ضمن الإشاريّات إلّا إذا تعذّر معرفة مرجعها من السّياق اللغوي، وعندئذ يتكفّل السّياق التداولي بمعرفة إشارة هذه الضمائر إلى مرجعها[١٦].

والمقصود بضمائر الحاضر هي الضمائر الدالّة على المتكلّم وحده مثل: (أنا) أو المتكلّم ومعه غيره مثل: (نحن)، وكذا الضمائر الدالة على المخاطب مفردًا كان أو مثنى أو جمعًا، ومذكّرًا كان أو مثنى[١٧]. وبين الـ (أنا) والـ (أنت) يتشكّل الخطاب التواصلي وتتحقق الفاعلية في اللغة واستعمالاتها، وعلى هذا الأساس عُدّ الضمير محورًا مهمًّا وفاعلًا أساسيًّا في

الخطاب التواصلي[١٨].

وممّا يدخل ضمن الإشاريّات الشخصية النداء؛ ذلك أنّه لا يُفهم إلّا إذا اتضح المرجع الذي يشير إليه، فهو ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب؛ لتنبيهه أو توجيهه أو استدعائه، لا يتصل بما بعده من كلام، بل ينفصل عنه بتنغيم معيّن[١٩].

٢- الإشاريّات الزمانية

هي عناصر أو تعبيرات تدلّ على الزمان الذي يحدّد بالقياس إلى زمان التكلّم، أي أنّ زمان التكلّم (زمان انتاج الخطاب) يعدّ مركز تحديد الإشارة الزمانية، فما لم يُعْرف ذلك الزمان لا يمكن تحديد مرجع الإشارة الزمانية وقد يلتبس الأمر على المتلقي[٢٠].

وممّا ينبغي الإشارة له أنّ الزمن في هذه العناصر (الإشارية) يكون على نوعين: الزمن الكوني، ونعني به المدد الزمنية المحددة كالسنوات والأشهر والأيّام ونحوها، وكذا الظروف مثل: الآن، اليوم، الغد، أمس...، والزمن النحوي، أي زمن الجملة (الماضي والحال والاستقبال)[٢١]، وقد يتطابق هذان الزمانان في سياق الكلام أو يختلفان، فتستعمل صيغة الحال - مثلًا- للدلالة على الماضي، أو الماضي للدلالة على الاستقبال فينشأ بينهما صراع لا يُحَلّ إلّا بالرجوع إلى سياق الكلام ومرجع الإشارة فيه[٢٢].

ولتحديد العناصر الإشارية المبهمة تبعًا لأزمنتها اقترحت (أوركيوني) التصنيف الآتي[٢٣]:

أولًا: المبهمات التزامنية: التي يكون استعمالها ودلالتها مقترنًا بالحاضر.

ثانيًا: المبهمات القبلية: التي يكون زمانها انقضى وفات.

ثالثًا: المبهمات البعدية: التي يكون زمانها لم ينقض بعد.

رابعًا: المبهمات الحيادية: وهذه زمانها غير محدد.

وتتجلّى مقاصد الإشاريّات الزمانية المؤدّاة بما ذكرناه من قبل في دقّة تصوير الزمن والأمانة في ذكره ونقل واقعه الحقيقي، زد على ذلك إعمال الخيال في ما حدث من أحداث وظروف في تلكم الأزمان.

٣- الإشاريّات المكانية

يمثل المكان بعدًا أساسيًّا يحسّ به الإنسان ويؤثر في وجوده وكينونته، وإنّ إحساسه بالمكان يكون أسبق من إحساسه بالزمان بأبعاد ذهنية شعورية[٢٤]، ولا ينفك الحدث اللغوي عن التعامل مع المكان، بل ذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك حين قال: ((فليس الكلام متعامِلًا فحسب مع عناصر المكان، وإنّما حبيس في سياجه))[٢٥].

وتتجلّى مقصديّة الإشاريّات المكانية بوصفها عناصر يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلّم، أو مكان آخر معروف للمتلقي يمثّل مركز الإشارة المكانية[٢٦]. وهي تمثّل مجموعة من الأمكنة والبنايات والمواقع والنُّصب التذكارية وغيرها، تستدعي من المتكلّم أن يستعرضها ويكتفي بها ويمنحها حضورًا، من أجل المتلقي. وتحدد هذه الإشاريّات بطريقتين، الأولى: بالتسمية أو الوصف من جهة، والثانية: بتحديد أماكنها من جهة أخرى[٢٧].

وتشمل الإشاريّات المكانية أسماء الإشارة مثل: هذا، ذاك ونحوها، والظروف مثل: هنا، هناك، فوق، تحت ونحوها.

ويدخل في الإشاريّات المكانية ما يسمونه بالمسافة العاطفية أو الوجدانية، والمراد منه البعد أو القرب المكاني المعنوي من مركز الحدث؛ لتحقيق فائدة التعظيم أو التحقير كما يرى علماء البلاغة ويمثلون للأوّل بقوله تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ [سورة البقرة: ١-٢]، وللثاني بقوله

تعالى: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [سورة الأنبياء من الآية: ٣٦][٢٨].

٤- الإشاريّات الخطابية

هي الإشاريّات التي لا تحيل إلى المرجع ذاته كما في الإشاريّات الشخصية[٢٩]، بل تحاول إيجاد أو خلق مرجع جديد للتعبير الإشاري، فلو كان المتكلّم - مثلًا - يروي قصة ثمّ انتقل إلى قصة أخرى، فالإشارة التي يذكرها بعد ذلك تكون مرجعيّتها القصة الأخرى لا الأولى[٣٠]. وتتفق هذه الإشاريّات مع الإشاريّات الشخصية وغيرها في اعتمادها التام على السّياق بوصفه كاشفًا ومفسّرًا لها.

وثمّة إشاريّات يمكن أن تُعدّ من خواصّ الخطاب تتمثل في بعض العبارات التي تُذكر في النصّ والتي تشير إلى موقف خاصّ بالمتكلّم، كتحيّره في ترجيح رأي من الآراء فيلجأ إلى القول: ومهما يكن من أمر، أو احتياجه إلى الاستدراك في الكلام فيستعمل (لكن) أو (بل)، أو أراد الإضافة إلى ما قيل شيء آخر فيقول: فضلًا عن، أو تضعيف رأي بكلمة (قيل)، أو ترتيب أمر ما على آخر بقوله: ومن ثمّ، ونحو ذلك[٣١].

وقد يعمد المتكلّم إلى استعارة بعض إشاريّات الزمان أو المكان؛ ليوظفها في خطابه لتكون إشارات نصية، فيقول - مثلًا - الفصل الماضي من الكتاب، أو الرأي السابق، أو يقول: تلك القصة إشارة إلى قصة سابقة مرّ الكلام عليها[٣٢].

٥- الإشاريّات الاجتماعية

هي ألفاظ وتراكيب تشير إلى نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلّم والمخاطب من جهة كونها رسمية أو وديّة، وتكون عِبرَ روابط عاطفية وعملية. فيدخل في العلاقة الرسمية صيغ التعظيم والتبجيل في مخاطبة مَن هو أكبر من المتكلّم في السّنّ أو المقام، كاستعمال الضمير (نحن) للمتكلّم

المفرد و(أنتم) للفرد المخاطب؛ لغرض التعظيم، وكذا استعمال بعض الألقاب كالسيد والسيدة أو حضرتك وسيادتك وسعادتك وجنابك، أو صاحب المعالي أو السمو ونحو ذلك[٣٣].

أمّا الاستعمالات غير الرسمية، فلها أيضًا ألفاظ وصيغ عدّة تشترك في كونها بعيدة عن القيود والتكلّف، ومشعرة بالقرب والحميمية[٣٤].

وفي ضوء ما تقدّم سنحاول تتبع الإشاريّات ومرجعيّاتها في شعر الجواهري على النحو الآتي:

المطلب الأول: الإشاريّات الشخصية

بيّنّا فيما تقدّم أنّ الإشاريّات الشخصية – بشكل عام – تشمل الإشاريّات الدالة على متكلم أو مخاطب أو غائب، وتأتي الضمائر في مقدّمة تلك الإشاريّات، كونها ترتبط بالذات ارتباطًا وثيقًا.

وتُعد الضمائر علامات يتوسّل بها المتكلّم لإضفاء بعدٍ تداوليٍّ على خطابه[٣٥]، من هنا قالوا إنّ السبب في تسميتها بـ (الضمائر) هو أنّ المتكلّم يضمر الاسم الذي سبق ذكره، أو لأنّه يضمر اسمه أو اسم المخاطب، ويجعل هذه الكلمات (الضمائر) كناية عمّا أضمره[٣٦]؛ ليحيل المتلقي إلى سياق الخطاب في الوقوف على المراد منه، وقد استعمل الجواهري الضمائر بأنواعها كلّها تقريبًا، ما دلّ على (متكلّم ومخاطب وغائب)، المتصل منها والمنفصل، وقد ظهر لنا ذلك من خلال تتبع مجموعة من قصائده وعلى النحو الآتي:

١ – ضمائر المتكلّم

وردت ضمائر المتكلّم في شعر الجواهري بكلّ أنواعها، فممّا ورد فيه ضمير المتكلّم ظاهرًا منفصلًا ما جاء في قصيدة (وردة بين أشواك) إذ قال:

أنا هذا أنا ما كنتُ يومًا
ثمّ إنّي أجلُّ من أن أُماشي
أنا أهوى ما أشتهيه ومن لا

أنا مذ كُنتُ كُنتُ ما بين نفسي
في شُعوري ونزعتي بملاكِ
في مَذاقي جماعةً وأُحاكي
يَرتضيني قامت عليه البواكي
والسخافات هذهِ في عِراكي[٣٧]

حاول الجواهري عن طريق تكراره للضمير(أنا) أن يثبت حريته في اختيار ما يصدر عنه من أفعال من دون خضوع أو تقليد لأحد في ذلك، على الرغم من كونه – كما يقول- ليس ملاكًا، وهذا التلاحق للضمير المنفصل يمكن أن يعطي إشارة للمتلقي من أنّ المتكلّم واثق بنفسه، معتدّ بها كثيرًا. فضلًا عن ذلك يريد إيصال رسالة للمناوئين – إن وجدوا- أنّه متلبّس بهذه الصفات. وتمثّل الـ (أنا) وحدة تركيبية ذات مرجعية موحدة هي المتكلّم، وبذلك تتحقق العملية التواصلية التي تمنح المعنى المراد، على أنّنا نلحظ – زيادة على ضمير الـ (أنا) البارز – حضورًا لـ (أنا) المستتر في أكثر من لفظ في هذا المقطع.

ومن الإشارات الشخصية المتعلقة بالمتكلّم التي نلمحها في شعر الجواهري:(تاء المتكلّم)، إذ استعملها في غير موضع من ديوانه، منها في قصيدة (سبيل الجماهير) إذ يقول:

لَوْ أنّ مَقاليدَ الجماهيرِ في يدي
إذنْ عَلِمَتْ أنْ لا حياةَ لأُمَّةٍ
لَو الأمرُ في كَفِّي لَجَهّزْتُ قُوَّةً
لَو الأمرُ في كَفّي لأعْلَنتُ ثَورةً
سَلكتُ بأوطاني سبيلَ التّمرُّد
تحاولُ أن تحيا بغيرِ التّجدُّد
تُعوِّدُ هذا الشَّعْبُ ما لَمْ يُعَوَّد
على كُلِّ هَدّامٍ بِألفِ مُشيِّد[٣٨]

نلحظ – في هذا المقطع – هيمنة الذات من خلال توظيف الشاعر لضمير المتكلّم (تُ)، إذ منحه فضاءً واسعًا من التمني باستعماله لـ (لَوْ) محاولًا إيجاد الحلول – بحسب رؤيته- لما تعانيه الجماهير من مشكلات، ممثّلًا ذلك في الألفاظ (سلكتُ، جهّزتُ،

أعلنتُ)، وبهذه الرؤية الباصرة للحلول التي افترضها الجواهري يكون قد أنجز مع المخاطب (المطلق) العملية التواصلية؛ رغبة منه في خلق جوٍّ من التفاعل من المحيط الخارجي (المتلقين).

وثمّة ملمح إشاري يمكن أن نلحظه في قصيدة (عتاب مع النفس) متمثلًا في ضمير المتكلّم (الياء)، إذ يقول فيها:

وإنّي على أنّ هذا المزاج
ورَفّتْ ظِلالٌ تُشيعُ القُنُوطَ
رماني بالمُرْهِقِ المُنْصِبِ
على صَفحتي وجْهيَ المُتْعَب[٣٩]

فالشاعر في هذا المقطع يشير إلى ذاته في ضوء استعماله المتلاحق لضمير المتكلّم (الياء) أربع مرّات، الذي يعدّ مركز المقام الإشاري[٤٠]، مبيّنًا من خلال ذلك ما يعانيه من وجع ويأس قد ظهرت معالمه على وجهه، وبهذا الوصف يكون الشاعر قد تجاوز الدلالات الشكلية إلى القواعد التداولية في الخطاب.

ومن المواضع التي رصدناها من استعمال الجواهري لضمير المتكلّم (نا) ولكنّه كان مستترًا ما جاء في قصيدة (عتاب مع النفس):

وكنتُ على رغم عقم الخليّ
أهوى حياة خليّ غبيّ[٤١]

فالضمير المستتر في (أهوى) يشير إلى ذات المتكلّم الذي يبث شكواه في عملية تواصلية مع مخاطب مفترض، من أجل إفهام المتلقي وترسيخ ما يعانيه من شعور.

واستعمل ضمير المتكلّم المنفصل الدال على الجمع (نحن) في قصيدة (دفاتر الغربة) قائلًا:

نحن من نطفة سوى نطفة النا
نحن في غرة الليالي رُواء
تتعب الشارحين منّا حياة
نحن ممّن لا يسترقّهم العمـ
نحن لا نزدهي ببارقة العيـ

بحقوق من نجمه مسترد
نحن صرعى الهموم في كلّ واد
نحن من سبيلهم أبرم السو
نحن نحن الذين نستبق الغيـ
ـس وطين من غير ذاك الطين
من شباب الناس مثل الغصون
نحن في سفرها نصوص متون
ـر بحلو المنى ومرّ المنون
ـش ولا نعمة من المنجنون
وعطاء من شمسه ممنون
وضحايا الجلاّد في كل حين
ـط وشيّدت لهم جباب السجون
ـب بعقبى غدٍ محيضٍ جنين[٤٢]

نلحظ هذا التعاقب لضمير المتكلّم (نحن) الذي تكرر في هذا المقطع تسع مرّات، مشيرًا به إلى مقام التفاخر من جهة، بوصفه ينتمي إلى قوم انمازوا على الناس في الخَلْقِ والخُلُقِ، ومُلمحًا من جهة أخرى إلى شدّة التعب والمعاناة من استهداف الآخرين وعدائهم لهم، ويبدو أنّ هذا التكرار للضمير (نحن) قد أخرجه إلى فضاء أوسع من دلالته الشكلية، أعني به فضاء التداولية الرحب. وقد مارس الجواهري بلحاظ هذا التلاحق عملية التأثير والتطويع في هذا النصّ بوصفه منتجًا للخطاب الإعلامي والإشاري، وهو خطاب حجاجي (الدّعاية) التي من شأنها إقرار الفكرة في أذهان المتلقين.

واستعمل ضمير المتكلّم (نا) متصلًا في قصيدة (آه على تلكم السنين) قائلًا:

جِراحُنا لَسْنَ بالمَواضي
وكلّ آهاتِنا الخَوافي
وحِقْدُنا ليسَ بالدَّفينِ
تَسْحَقُها الكَأْسُ بالرّنين[٤٣]

إذ نلحظ تلاحق الضمير (نا) في هذين البيتين ثلاث مرات، ولا يخفى ما في ذلك من إشارة إلى مشاركته للمخاطبين فيما ساقه من أوصاف الحزن واللوعة المتمثلة في الألفاظ

(جراحنا، حقدنا، آهاتنا)؛ كونه يعيش واقعهم ويعاني معاناتهم، من هنا فإنّ الضمير (نا) عمل على ربط الخطاب الشعري للجواهري بمقامه الخارجي فأنتج خطابًا تداوليًّا يمنح الخبرة والفكرة والخيال في مفردات الحاضر والمستقبل.

واستعمل الضمير (نا) أيضًا مشيرًا به إلى الجمع في قصيدة (ذكرى عبد الناصر):

إنّا رئاتٌ في حنايا أُمّةٍ
لم تأتِ بِدعًا في البيانِ وإنّما
لسنا ملائكةً ولكن حَسبُنا
نُلفي بما وهبت لنا من وحيها
لا هُمّ عفوك إنّنا من قلّةٍ
راحتْ بنا تتنفّسُ الصُّعداءَ
كُنّا لما حَلَمَتْ به أصداءَ
إغراؤها لِنقاومَ الإغراءَ
عن كلّ ما تهبُ الحياةُ عَزاءَ
خُلقتْ لتُعطي حَقّها الأشياءَ(٤٤)

والملاحظ في هذا المقطع من القصيدة كثرة استعمال الشاعر لضمير المتكلّم المتّصل الدال على الجمع (نا)، إذ ورد سبع مرّات متّصلًا بالألفاظ: (إنّا، بنا، كنّا، لسنا، حسبنا، لنا، إنّنا)، وغير خاف ما يكتنزه هذا الاستعمال من إشارة إلى أنّ الشاعر يشارك الحالمين، مركّزا على مسألة التوظيف الإعلامي الحيوي، في ظلّ انتقاء أحداث مهمة؛ من أجل اشراك المتلقين بما يعانيه من معاناة وآلام، وما يعيشونه من أحلام مرادة ورؤى مستقبلية. غاية هذا التوظيف للضمير البعد التواصلي وتقرير التماسك الخطابي لعملية الخطاب، فهو جزء منهم يعيش معاناتهم وآلامهم، كما يعيش أحلامهم وتطلّعاتهم، ليحقق بهذا التوظيف للضمير البعد التواصلي لعملية الخطاب.

٢- ضمائر المخاطب

عمد الجواهري في خطاباته الشعرية إلى استعمال ضمير المخاطب

– بوصفة متلقيًا لتلك الخطابات– استعمالًا إشاريًّا تحقيقًا للتواصل التداولي، وقد تنوع ضمير المخاطب المستعمل في هاته العملية بين المنفصل والمتّصل، فمن استعماله للضمير المنفصل (أنت) ما ورد في قصيدة (الأصيل في لبنان) إذ قال:

أَأَنتَ رأيت الشمس إذ حُمَّ يومُها
وما بَدتْ من زُرقةِ البحرِ أَلهبتْ
أَأَنتَ رأيتَ الغيم يلتَمُّ فوقها
أَأَنتَ سألت الكون عن أي باعث
وهيمن روحٌ من حِمام ورقةٍ
تَحَدَّرُ في مهوًى سحيق لتغرُبا
بحُمرَتها آذيَّهُ فتَلَهَّبا
يُجاذبُ متنَيْها رداءً مُذهّبا
بدا في غروب الشمس جذلان معجبا
على الشاطئين استيقظا فتوثَّبا[٤٥]

يوجه الجواهري خطابه الشعري في هذا المقطع إلى ساحل لبنان حين وقف عليه، مستثمرًا ما يدلّ عليه الضمير المنفصل (أنت) من إشارة متعلّقة بذات المخاطب، ليقوم ببث أحاسيسه وما يختلج في نفسه من صور جميلة لذلك الساحل في قالب استفهامي متخيل مانحًا بذلك هذا الضمير فضاءً واسعًا وبعدًا تداوليًّا الغرض منه تقرير تلك الصور، إذ يحاول الجواهري في إطار التعاقب المتواصل للضمير المنفصل (أنت) في تقرير الأحداث المختلفة والصّور؛ من أجل أن ترتقي إلى الصورة المادّية الخالدة.

وجاء ضمير المخاطب (أنت) مستترًا كما في قصيدة (أبو العلاء المعري) التي يقول فيها:

قفْ بِالمَعَرَّةِ وامْسَحْ خَدَّها التَّرِبا
واستوحِ مَن طبّب الدنيا بحكمته
وسائِلِ الحُفْرَةَ المَرْمُوقِ جانِبُها
واستوحِ مَن طوّق الدنيا بما وهبا
ومَن على جُرحِها مِن رُوحهِ سَكبا
هل تَبتَغي مَطْمَعًا أو تَرتَجي طَلَبا؟[٤٦]

فقد استطاع الشاعر – من

خلال استعماله لضمير المخاطب المستتر (أنتَ)- أن يوجد خطابًا تواصليّا مع متلقٍ مفترض للحديث عن مكانة الشاعر أبي العلاء المعري. يتمثّل ذلك في الأسلوب الأمري المؤدّى بفعل الأمر الصريح الذي تكرر ضمن خمس مرّات (قفْ، امسحْ، استوحِ، سائلْ)، إذ يطالب المتلقي - أيًّا كان- أن يعود بذاكرته إلى (المَعَرَّةِ) - موطن أبي العلاء- ويسائلها عن أبي العلاء في ظل زجّ المتلقي في فعّاليّات الاستذكار والاحتفاء ومسح غبار الزمن عن شاعر حاز مكانة سامية في تراث الأدب العربي، وهو ضرب من ضروب التواصل الخطابي والتفاعل التداولي مع المتلقي، كلّ ذلك مقدّم ليبيّن بعده مكانة هذا الشاعر الكبير.

ولغرض تحقيق الخطاب التواصلي بين المتكلّم والمتلقي عمد الجواهري إلى استعمال ضمير المخاطب التاء في قصيدة (إلى الرصافي) في قوله:

تمرّستَ بالأولى فكنتَ المغامرا
وفضلتَ عيشًا بين تلك وهذه
وفكرتَ بالأخرى فكنتَ المجاهرا
به كنتَ بل لولاه ما كنتَ شاعرا[٤٧]

إذ يبيّن - في ضوء استعماله لهذا الضمير الذي تلاحق سبع مرّات - مكانة الرصافي وما عاناه من آلام وعزلة بسبب مواقفه السياسية دفاعًا عن شعبه، وأنّه لولا تلك المواقف لما وصل الرصافي إلى هذه المكانة، وبهذا يكون الشاعر قد وظّف ضمير المخاطب توظيفًا دلاليًّا من أجل صياغة ذاكرة معجبة وهويّة باصرة للمتلقين إن حاضرًا وإن مستقبلًا.

وكان لهذا الخطاب التواصل الذي بدأه الجواهري أن خرج الرصافي من عزلته وكتب أبياتًا في مدح الجواهري.

وعلى النحو المتقدّم ذاته من الخطاب التواصلي المتخيّل استعمل الشاعر ضمير المخاطبة (الياء) في

قصيدة (سلمى على المسرح)، إذ قال:

العَبي فالهَوى لَعِبْ
وابْعَثي هِزَّةَ الطَّرَب
مثِّلي دَورَكِ الجميـ
ـلَ على شِرعَةِ الأدب
أحسني نُقلَة وإن
تعبتِ هذه الرُّكَب
فعلى وقْع خطوِها
يتنزّى حشى وجب
روِّحي هذه النفو
س فقد شَفّها التّعب
إجذبيها إلى الرضا
إدفعيها عن الغضب
لا تغرّنَّك أوجهٌ
كطلاء من الذَّهب
وثُغور تَضاحكت
كانعكاسةِ اللّهب
فتشي عن دخائلٍ
غُيِّبَت تشهدي العَجب[٤٨]

وجّه الشاعر ذلك الخطاب الشعري إلى امرأة – يبدو أنّها معلومة لديه- وهي ترقص على المسرح، وقد خاطبها بنبرة الملتمس، طالبًا منها ترويح نفوس الحاضرين واسعادها، فنلحظ توظيف الشاعر لضمير ياء المتكلّم في قوله: (العبي، ابعثي، مثّلي، أحسني، روّحي، إجذبيها، ادفعيها، فتّشي، تشهدي)، فهذا التكرار للضمير من شأنه أن يمتّن عملية الخطاب التواصلي، إذ تتجلّى قدرة المخيال الاجتماعي في صياغة الواقع التداولي، في ضوء التمثيل الشكلي الذي مارسه الجواهري من خلال الصور التي رمز لها في التتابع الفعلي الذي انطوى على ضمير ياء المتكلّم.

ويمكن أن نفهم من هذا الخطاب تلميحًا لمعاناته، وأنّ ظاهره الذي قد يبدو سعيدًا هو خلاف باطنه الحزين، هذا ما يمكن أن يفهم من قوله: (فتّشي، تشهدي).

ومن ضمائر المخاطب التي استعملها الجواهري في خطابه الشعري استعمالًا إشاريًّا الكاف، وذلك في قصيدة (ذكرى وعد بلفور) إذ يقول:

أأُم القُدْسِ والتأريخُ دامٍ

ويومُكِ مثلُ أمسكِ في الكفاح
ومهدُكِ وهو مهبطُ كُلِّ وَحْيٍ
كنعشُكِ وهو مُشْتَجِرُ الرِّماح[٤٩]

إذ يوجه الشاعر في هذين البيتين خطابه الشعري إلى القدس المحتلة في ذكرى وعد بلفور المشؤوم، مختصرًا الزمن في صورة شعرية رائعة، مبيّنًا فيها حال القدس بين أمسها ويومها فهي في كفاح مستمر، مثلما أنّ مهدها يشبه نعشها فكلاهما متشابك الرماح. فيحاول الجواهري في ظلّ تلكم الإشاريّات المؤدّاة بالضمير (الكاف) إلى بناء ذاكرة تداولية توظّف التاريخ لخدمتها حفظًا ونقلًا.

ومن المقاطع الشعرية الجميلة التي نبصر فيها تشابكًا في استعمال الضمائر وتلاحقًا في أكثر من نوع من أنواع الضمائر المتعلّقة بالمخاطب ما نجده في قصيدة (جناية الأماني) التي يقول فيها:

أنا حمّلتُكَ يا طير الأسى
أنا حتّى عدتَ منه ألكنا
تلك أثقالُ المُنى شاطَرْتَني
حَمْلها أنتَ فأسْديكَ الثّنا
أنتَ مثلي شاعر معتزل
فتغنى كي تميل الغصنا
أنتَ لا تطلب ما لا ينبغي
فدع الألقاب عني والكنى
غنّني باسم عراقي تشجُني
واتركِ الشّام وخلّ اليَنا[٥٠]

فالخطاب موجه إلى الطير، وهي عادة عرفها الشعر العربي منذ نشأته، إذ يعمد الشعراء إلى البوح بأحزانهم وآلامهم جاعلين الطير متلقيهم، وهو نوع من المناجاة تفرضها حالة الشاعر النفسية.

وقد أورد الشاعر الضمير البارز المنفصل (أنت) إلى جانب إيراده له مستترًا ممثلًا في قوله: (فتغنّى، فدع، وغنّني).

واستعمل الكاف في قوله: (حمّلتُكَ، أسْديكَ)، وكذا استعمل

تاء المخاطب في قوله: (عُدّتَ، وشاطرتَني)، وبهذا فأنّ الشاعر استطاع توظيف هذه الضمائر - بوصفها ألفاظًا إشاريّة- تمظهرت متنوّعة داخل الخطاب؛ من أجل تشكيل فضاء تداولي محكي، فضلًا عن بثّ مناجاته في خطاب واقعيّ ملموس.

٣- النداء

وهو من العناصر الإشارية المتعلّقة بالمخاطب والدالّة على حضوره، سواء أكان المنادى نكرة أو معرفة، مضافًا أو شبيهًا بالمضاف[٥١]، الغرض منه تنبيه ذلك المخاطب أو توجيهه أو استدعائه، وقد وظّف الجواهري في خطاباته الشعرية المنادى في مدّ جسور العلاقة التواصلية، وممّا جاء على هذا النحو قوله في قصيدة (الشاعر المقبور):

فيا طيرّ لا تسجع ويا ريح سكّني
هبوبًا على جسمي ليسكن ثائره
ويا منزل الأجداث رحمة مشفق
عليه ففيك اليوم قرت نواظره
ويا بدر من سامرته وجدك انقض
فمن لك بعد اليوم جلٌّ تسامره
عساك إذا ضاقت بصدرك فرجةٌ
تطالعه في رمسه فتذاكره
ويا خلّة الباكي عليه تصنعًا
ألم تك قبل اليوم ممّن يغايره[٥٢]

ورد أسلوب النداء في هذا المقطع خمس مرّات، مع لحاظ اختلاف المنادى في كلّ مرة، ففي الأولى: (الطير)، وفي الثانية: (الريح)، وفي الثالثة: (منزل الأجداث)، وفي الرابعة: (البدر)، وفي الخامسة: (الخلّة)، وبهذا يكون الشاعر قد حقق خطابًا تداوليًّا موجهًا لأكثر من متلق، فضلًا عن أنّ هذا التلاحق المدمج يشكل بنى قوية متحاورة مع المتلقي.

٤- ضمائر الغائب

هي الضمائر التي تستعمل للإشارة إلى مجهول، لأنّ صاحبها يكون غير حاضر، من هنا احتاجت

إلى ما يفسرها[٥٣]، وهي - كما بيّنا فيما تقدّم - لا تدخل في الإشاريّات إلّا إذا كان تفسيرها في السّياق التداولي لا اللغوي. وقد عمد الجواهري في خطاباته الشعرية إلى استعمال هذا النوع من الإشاريّات المبهمة ليحيلها إلى معيّنة معتمدًا في تفسيرها على فهم المتلقي، من ذلك ما جاء في قصيدة (عبد الحميد كرامي) إذ قال:

كُنّا نُقيمُ الكونَ حينَ يَمَسّنا
ضرٌّ وحينَ يُهدِّنا إعصار
والآن نحن إذا اشتكينا غاصبًا
قالوا: أولاءِ بنوكم الأخيار[٥٤]

فنجد الشاعر قد استعمل ضمير الجمع الواو في قوله: (قالوا) مشيرًا به إلى غائب مجهول، والظاهر أنّه يحيله به إلى أولئك الذي يعملون مع الغاصب فيزيّنون أفعاله، ويخادعون الناس ويثبطونهم عن القيام بوجهه. وهذه الإحالة وقعت خارج السّياق اللغوي، وإنّما تبيّنت لنا من خلال السّياق التداولي الذي يُتيح للمتلقي تعرّفه والكشف عن وجوده وموقعه واستعمل الضمير الغائب في غير موضع في قصيدة (على الرصيف)، منها ما ذكره في هذا المقطع بقوله:

لمْ يَهْدُ عامين وكانت له
من ثقةٍ بالنفس أعوام
يمشي الهوَينى يستشفّ الرؤى
كما أتى المرسم رسّام
على (الرصيف) لمْ يَعُقْ سيره
خلفٌ ولمْ يزحمه قدّام[٥٥]

إذ كرر الشاعر ضمير الغائب، لكن في صور متعددة، فجاء ظاهرًا متصلًا في قوله (له)، وجاء مستترًا في قوله: (يهد، يمشي، يستشف)، وليست من إحالة في السّياق اللغوي تكشف لنا هوية هذا الغائب، إلّا أنّ السياق التداولي – بلحاظ القصيدة كلّها- تبيّن أن الشاعر كان يحيل ضمير الغائب إلى شخص كان قد التقاه متحققًا من هويّته وهو يصلُ (الرصيف) متجاوزًا

الخطوط الحمراء بحسب تعبيره.

المطلب الثاني: الإشاريّات الزمانية

شغل الزمن حيزًا كبيرًا من شعر الجواهري، لكونه (الزمن) يشكل في لغة الشعر سياقًا يعمل على تقوية عملية التواصل مع المتلقي بما يستدعي من ذكريات وصور أحداث معينة[٥٦]، والإشارة الزمانية قد تمثل مدة زمنية محدد (يوم، شهر، سنة،...)، وقد تتسع لتستوعب حقبة زمنية أوسع من ذلك ليصل إلى عصر بأكمله مثلًا.

وقد تنوعت الإحالات في العناصر الزمانية الواردة في شعر الجواهري، فمنها ما جاء مشيرًا إلى زمن محدد بعينه كما في قوله في قصيدة (تحية العيد):

شوالُ جئْتِ وأنتَ أكرمُ وافدٍ
بالعيدِ تُسعِد كعبةَ الوُفّاد
أمّا العراقُ فلستَ من أعياده
وعليه للأرزاء ثوبُ حداد[٥٧]

فالمؤشر الزماني (شوال) يحيل إلى زمن محدد معروف هو عيد الفطر الذي يكون في أوله، وهو يوم فرح وسرور للمسلمين، إلّا أنّه يتبع ذلك بوصفه حال العراق وما يعانيه من الآلام قد ألبسه ثوبًا من الحداد، وعليه فلا يفرح ولا يكون هذا اليوم من أعياده، وبهذا يكون الشاعر قد وظّف هذا المؤشر توظيفًا تداوليًّا باعتماده على ما يكتنزه هذا اللفظ من بعد تداولي.

ومن المواضع التي خرج فيها العنصر الإشاري عن مدته المحدد قول الشاعر في قصيدة (علموها):

إنَّكُمْ باحتقاركُم للنساء اليومَ
أوسعتُمُ الرّجالَ احتقارا[٥٨]

فالشاعر لا يقصد بلفظ (اليوم) – ها هنا – الزمن الكوني أو المدّة الزمنية المقدّرة بالأربع والعشرين ساعة، بل أراد به الإشارة إلى العصر الذي يعيشه الشاعر كلّه حيث كانت نظرة المجتمع للمرأة نظرة متدنية، أو كما ذكر الشاعر نفسه أنّها كانت محتقرة،

والذي حدّد الإحالة في هذا العنصر الإشارة هو السّياق التداولي الذي وردت فيه اللفظة.

ومثلها ما جاء في قصيدة (أمان الله) حيث يقول:

فهَا هيَ بينَ تأميلٍ ويأسِ
تصبرُ ساعةً وتجيشُ ساعة[٥٩]

فمن الواضح أنّ لفظة (الساعة) الوارد في البيت لم يقصد منه الشاعر المدّة الزمنية الكونية المعروفة للساعة، بل ما قصده هو توصيف حاله المتذبذب بين الأمل واليأس، فمرة يغمره الأمل، وأخرى يسيطر عليه اليأس، والاتساع في دلالة (اليوم) هو الذي منح الخطاب بعده التداولي.

ومن الألفاظ الزمانية التي جاءت مشيرة إلى معنى غير مرتبط بزمنها الكوني لفظي (الليل والصبح) في قصيدة (طال ليلي) في قوله:

طال ليلي أما لصبح طروقُ
فيولي أما لشمس شروقُ [٦٠]

فالسّياق الذي ورد فيه هذان اللفظان يأبى أن تكون الإحالة الإشارية لهما المد الزمنية المحدد بجزء من اليوم الكوني، بل وظّفهما الشاعر تداوليًّا؛ للإشارة إلى حالين متضادّين، فـ (الليل) يشير إلى حال المعاناة والألم الذي يعيشه الشاعر، و(الصبح) يشير إلى ما يأمله من شروقٍ لشمس الخلاص من ذلك.

ومن ظروف الزمان التي أخرجها الجواهري عن معناها الحرفي لفظ (الآن) الوارد في قصيدة (يا بدر داجية الخطوب)، التي نظمها في رثاء صديقه الشيخ جواد، إذ يقول في أحد مقاطع هذه القصيدة:

فالآنَ تصدقُ دمعةُ الباكي إذا
نزلتْ عليكَ وأنّهُ الموجوع
والآنَ ينزلُ كلُّ طالبِ حاجةٍ
في قفرةٍ ليستْ بذاتِ زُروع
والآن تفقدُ البلادَ مُحنّكًا
يُحتاجُ في التنفيذ والتشريع

والآنَ تلتمسُ العيونُ فلا ترى

أثرًا لوجهٍ رائع ومُريع(٦١)

فمن المعلوم أنّ المعنى الحرفي لهذا الظرف هو الوقت الآني للحدث، إلّا أنّ الشاعر وظّفه هنا ليشير إلى عصر بأكمله سوف تعيشه البلاد يبدأ بموت صديقه ويستمر، وقد كرر استعماله لهذا الظرف في رسم صور من الألحان الشجية.

وقد يأتي لفظ الزمان مبهمًا كلفظ الـ (حين) الوارد في قصيدة (أخا وِدّي)، حيث يقول:

وإنّي حين أبتعث القوافي

تُشيد بفضل مكرمة تُشاد(٦٢)

إذ لا يدل هذا اللفظ هنا على زمن محدد، بل لجأ الشاعر إلى إبهامه ليدلّ على العموم، ومن ثمّ لا يمكن الجواب عن سؤال مفترض هو: متى كان ذلك؟ وبذلك يكون السّياق التداولي قد حوّل دلالة هذا اللفظ من الحين إلى الإبهام.

المطلب الثالث: الإشاريّات المكانية

إنّ ما قيل في الإشاريّات الزمانية ينطبق على الإشاريّات المكانية، ولأنّها لا تحمل دلالاتها في ذاتها يتكفّل السّياق التواصلي كشف تلك الدلالات(٦٣).

ويمثل المكان بعدًا أساسيًّا يحسّ به الإنسان ويؤثر في وجوده وكينونته، والإحساس بالمكان أسبق من الإحساس بالزمان، ذلك أنّ إدراك المكان عادة ما يتعلّق بأمور حسّية مادية، أمّا إدراك الزمان فمتعلّق بأمور ذهنية شعورية(٦٤).

ولأنّ المكان لا يكاد يفارق الخطاب الشعري منذ وجد، وهو من الأمور التي تساعد على تمكين الخطاب التداولي ومن ثمّ تأويله تأويلًا صحيحًا، وفهم المعنى وبلوغ قصد المتكلّم(٦٥).

من هنا نجد أنّ الجواهري قد نوّع في استعماله للعناصر الإشارية المكانية، وجعلها مفاتيح لفهم

المقصود، في ضوء الصور التداولية التي رسمها في مدونته الشعرية، ومنها ما ورد في قصيدة (طيف تحدّر)،

ناغيتُ أعشاش النسور كأنّها
فوق القباب نماذج لقباب
وعلوتُ أسنمةَ الجبالِ وخلتُني
منهنَّ ممتطيًا مُتونَ سحاب(٦٦)

وظّف الشاعر في هذا النص العناصر الدالة على المكان (أعشاش النسور، فوق، أسنمة الجبال) مشيرًا بها إلى أبعاد موقعية مرتفعة، ما يجعل المتلقي محلقًا في فكره ليقف على مدلولاتها من علوّ الشأن والرفعة والمقام العالي، وبذلك يكون النصّ قد حقق قيمة تداولية.

وجمع بين المدلول اللغوي والتداولي لمجموعة من العناصر الإشارية في مقطع من قصيدة (فتى الفتيان)، إذ وظّف مجموعة من العناصر اللغوية الدالة على المكان (شرق، غرب، فويق، تحت) توظيفًا دلاليًّا بقوله:

وطارَ بِهِنَّ في شرقٍ وغربٍ
كأنّ لهُنَّ في قصبٍ رِهانا
فُويقَ الشمسِ كُنَّ لهُ مدارا
وتحتَ الشمسِ كُنَّ لهُ مكانا(٦٧)

إنّ المداليل التي قصدها الشاعر لهذه الألفاظ لا يمكن أن تُعرف إلّا في ضوء السّياق التداولي الذي وردت فيه، والذي يظهر من النص أنّ الشاعر أراد بها بيان قيمة ومكانة قصائد المتنبي، فالعنصرين (شرق، غرب) كان الغرض من إيرادهما – على ما يبدو- هو الإشارة إلى انتشار هذه القصائد في أرجاء المعمورة (شرقها وغربها)، وأمّا العنصرين (فويق، تحت) فكان قصد الشاعر منهما الإشارة إلى قيمة تلك القصائد.

واستعمل في مقطع من قصيدة (يا فرحة العيد) - التي أهداها لشقيقته- العنصر الإشاري (هذي) قائلًا:

حسبي وحسبك عن بعد وعن كثب
أنّي أناجيك في هذي الدواوين[٦٨]

وقد أراد بهذا العنصر بعدًا مكانيًّا محددًا هو (الدواوين)، مريدًا بها ما يكتبه من قصائد، فهي البديل – كما يقول- عن اللقاء والرسائل، وبهذا يكون قد حقق مع المتلقي تواصلًا تداوليّا جاعلًا من دواوينه جسرًا لذلك.

واستعمل اسم الإشارة (هنا) في قصيدة (هنا يرقدان)

هنا يرقدان وخضرُ الجبالِ
تَبُلُّ الينابيعَ أردانها
هنا يرقدان بحيث السما
ء تصبغُ بالورد ألوانها[٦٩]

لم يحدد مدلول العنصر المكاني (هنا)، بل تركه الشاعر مبهما ليعمل المتلقي ذهنه في الوقوف على دلالته مستعينًا بالسّياق، وبهذا يكون الشاعر قد خلق حالة خطابية تداولية.

المطلب الرابع: الإشاريّات الخطابية

بيّنا فيما سبق أنّه توجد في بعض الألفاظ الإشارية التي تعدّ من خواص الخطاب، وقد وردت مجموعة منها في مدونة الجواهري الشعرية، منها: حرف الاستدراك (لكن) الذي ورد في قصيدة (شكوى وآمال) في قوله:

وإنّي وإن كُنتُ القليلَ حماقةً
فلي مبدأ عنه أُحامي وأَدفع
ولو أنّني أعجلت خِيفَتْ بَوادري
ولكنَّ صبرَ الحُرِّ لِلحُرِّ أَنفع[٧٠]

فالعنصر الإشاري (لكن) في هذا المقطع يشير إلى موقف خاص متعلّق بالمتكلّم (الشاعر) الذي يريد لفت انتباه المتلقي إلى أمور جديدة غير تلك التي ذكرها قبل حرف الاستدراك، فبعد أن عرض معاناته من خلٍّ أساء الظنّ به ومن زمان قسى عليه حتى لقد تمنى الموت، بيّن أنّه لو أراد التعجّل في الانتقام لفعل ولأخافَ بما يفعل، ثمّ يستدرك على ذلك ليعبر

عن حالة أخرى جديدة يُراد للمتلقي أن يعيها، وهي أنّ الصبر على تلك المعاناة يكون أنفع من تعجيل الانتقام، وبهذا الحرف (لكن) استطاع أن يقوّي أواصر الخطاب التداولي في عرض الأمرين، القدرة على الانتقام والصبر على البلاء، مع الإلماح إلى ترجيحه الأمر الثاني.

ومن الحروف التي تستعمل عنصرًا إشاريًّا خطابيًّا للاستدراك أيضًا: (بل)، إذ وردت بهذا المعنى في الخطاب الشعري للجواهري، كما في قصيدة (على ذكرى الربيع) بقوله:

وليست الريحُ يُهدي الله نفحتَها
لنا بل الرُّوحُ يُوحيها لأجساد[٧١]

إذ لجأ الشاعر إلى استعمال هذا العنصر لينتقل من حالة إلى أخرى، فقد بيّن أولًا بأسلوب النفي من أنّ الله تبارك وتعالى لا يهدِ لهم نفحات الريح في هذا الشهر (الربيع)، عاد ثانيًا فاستدرك جذبًا لانتباه المتلقي إلى أنّه تبارك وتعالى كأنّما يوحي أرواحهم في أجسادهم بها، وهو نوع من المبالغة لبيان أثر فصل الربيع عليهم. والذي يبدو أنّ الغاية من ذلك تمكين أواصر العملية التواصلية بينه وبين المتلقي.

المطلب الخامس: الإشاريّات الاجتماعية

لم يخلُ خطاب الجواهري الشعري من تنوع في توظيف العناصر الإشارية الاجتماعية، الرسمية، فمن توظيفه العنصر الرسمي ما ورد في قصيدة (تحية العيد) حيث قال:

وعلى المواكب من جلالك هيبة
غصَّ الصّعيدُ بها وماج الوادي
مَلِكَ العراق هناك مُلكُكَ إنّه
وقفٌ على سبطِ النبيّ الهادي[٧٢]

أحضر الشاعر عنصرين اجتماعيين في هذا المقطع من القصيدة هما: (جلالك، ملك العراق)، ليشير بهما إلى نوع العلاقة الاجتماعية بينه وبين من يخاطب (يمدح)، ولا شك أنّها تستدعي تعظيمًا وتبجيلًا، والذي

بيّن نوع هذه العلاقة هو السّياق التداولي لهذين اللفظين.

ومثله ما جاء في قصيدة (إلى القوتلي) حين قال:

سيدي أنت أيّها الحرم الآمن
يُلجأ لمثله ويُعاج
سيدي أنت والتفضّلُ أحواجٌ
وفيضٌ من الندى أحراج
سيدي لا يسؤْكَ ضيقي بما أوليتَ
ولا يرمك انزعاج
سيدي أنت سوف يلمع النصر
ويوفى نذرٌ ويقضي حاج[٧٣]

إذ استعمل الشاعر في هذه الأبيات لفظ (سيدي) استعمالًا تداوليًّا، وكرره أربع مرات، وهو من العناصر الإشارية الاجتماعية التي تشير علاقة بين مختلفين في الرتبة، لجأ إليه الشاعر هنا إظهارًا للاحترام والتبجيل للمخاطب وهو (شكري القوتلي) رئيس الجمهورية السورية في حينها.

ومن العناصر التركيبية التي يمكن أن توظّف كعنصرٍ إشاريٍّ اجتماعيٍّ (زعيم الدين) الوارد في قصيدة (على الخالصي) في قوله:

سمعًا زعيم الدين من نادب
عزّ عليه اليوم أن تُندبا
اليوم يرثيك وفي أمسه
كان يغنيك لكي تطربا[٧٤]

حيث نعت الشاعر في نعيه الشيخ مهدي الخالصي بـ (زعيم الدين)، ومن ثمّ يمكن أن يكون هذا التوظيف للمركب الإضافي – في ضوء السّياق التداولي الذي ورد فيه- كاشفًا ومشيرًا إلى نوع العلاقة الاجتماعية التي ترتبط الشاعر بالمخاطب، أو لنقل رتبة المتكلّم بالنسبة للمتلقي.

ومن العناصر الإشارية الكاشفة عن الطبقة الاجتماعية ما جاء في قصيدة (يا فرحة العيد) حين قال:

سلمتْ أُختي إذ لم يبقِ لي زمني
أخًا سواها ولا أُختًا تناغيني[٧٥]

حيث لجأ الشاعر إلى إيراد لفظ (أختي) الذي يشير إلى نوع العلاقة التي تربطه بالمتلقي، ولا يخفى ما في هذا اللفظ من تمتين لآصرة الخطاب التداولي.

ومثلها ما ذكره في قصيدة (يا غريب الدار) بقوله:

يا أخا الفطرة مجـ

ـبولًا على الخير انفطارا

يا أخا البسمةِ ضاهتِ

بسمة الفجر افترارا[٧٦]

فقد وظّف الجواهري لفظ (أخا) في هذا المقطع توظيفًا تداوليًّا بعيدًا تمامًا – كما يبدو- عن المعنى اللغوي لها، إذ كشف السّياق العام أنّ الجواهري يخاطب في هذه اللفظة ذاته التي عانت من الأوضاع في بلده (العراق) ما اضطرته إلى الابتعاد عنه، فصار (غريب الدار) التي يسكنها، وبهذا الاستعمال تمكّن من نقل ذهن المتلقي إلى فضاء أوسع أشارت له لفظة (أخا).

نتائج البحث

توصل الباحث في ضوء ما تقدّم من تتبع للعناصر الإشارية في شعر الجواهري إلى نتائج عدّة، يمكن بيانها على النحو الآتي:

١- إنّ الخطاب الشعري – بوصفه خطابًا فنيًّا- لا يختلف عن الخطاب النثري في توسله لإقناع المتلقي بوسائل التخاطب المتاحة، ومنها الإشاريّات التداولية، فقد مثلت جزءًا مهمًّا من هذا الخطاب.

٢- حضور الإشاريّات التداولية بأنواعها الخمسة (الشخصية، الزمانية، المكانية، الخطابية، الاجتماعية) في مدونة الجواهري الشعرية، والتي أسهمت في مد الأواصر التواصلية بين المتكلّم والمتلقي وتمتينها، ممّا أعان الشاعر على بيان مقاصده المختلفة بدقة.

٣- حضور أوسع للإشاريّات الشخصية بصورة عامة في خطاب

الجواهري الشعري، إذ استعملها الشاعر بكثرة، وقد مثّلت هذه الضمائر بأنواعها المختلفة (الحاضرة والمضمرة، والمنفصلة والمتصلة) القسم الأكبر من الإشاريات التداولية.

٤- حضور بارز لضمير المتكلّم.

٥- معظم السّياقات التي وردت فيها الإشاريّات التداولية كانت وصفية، عمل الشاعر على شحنها بهمومه ومعاناته وآلامه.

٦- وسّع الشاعر في دلالة بعض أنواع الإشاريات عند استعماله لها، مبتعدًا عن دلالاتها اللغوية.

٧- على الرغم من أنّ الإشاريات الخطابية والاجتماعية وردت بكثرة في الخطاب الشعري للجواهري إلّا أنّ العيّنات المدروسة كانت الأقل من بين الإشاريّات الأخرى؛ وذلك بسبب التكرار ولا سيما في (لكن).

٨- إنّ الإشاريّات في خطاب الجواهري جاءت مشيرة إلى مقاصد يتغيّاها، من نحو الاقتصاد اللغوي والتحقّق من هويّة المشار إليه، واستشراف بنى مدمجة قوية، زد على ذلك خلق صور ملموسة يأنس بها المتلقي وتسكن نفسه إليها.

الهوامش:

١- معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٢٦٢ (شور).

٢- لسان العرب: ٤/ ٤٣٧ (شور).

٣- ينظر: استراتيجيّات الخطاب: ٨٠.

٤- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٥-١٦.

٥- تلوين الخطاب، إميل بنفست، فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والتداولية والحجاج: ١٥٠.

٦- التداولية، جورج يول: ٣٩.

٧- نسيج النصّ: ١١٦.

٨- ينظر: علم النصّ: ١٣٥-١٣٦.

٩- معالم التداولية في كتاب النظرات للمنفلوطي: ٣٢٨.

١٠- ينظر: استراتيجيّات الخطاب: ٨١.

١١- ينظر: الوظائف التداولية للخطاب السياسي وأبعادها الحجاجية: ٢٠٣.

١٢- نقد الشعر: ٥٦.

١٣- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٧.

١٤- ينظر: استراتيجيّات الخطاب: ٨١.

١٥- ينظر: الإشاريّات التداولية في المقال الصحفي الإسرائيلي (بحث): ١٢.

١٦- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي: ١٦-١٧.

١٧- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي: ١٧-١٨.

١٨- ينظر: البعد التداولي للإشاريّات في سورة التوبة (بحث): ٣٧٠.

١٩- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي: ١٩.

٢٠- ينظر: م. ن: ٢٠.

٢١- ينظر: النظرية البراجماتية اللسانية: ٩٤.

٢٢- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي: ٢٠.

٢٣- ينظر: النظرية البراجماتية

اللسانية: ١١٧-١١٨.

٢٤- ينظر: النظرية البراجماتية اللسانية: ٩٤.

٢٥- التفكير اللساني في الحضارة العربية: ٢٤٨.

٢٦- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي: ٢١.

٢٧- ينظر: استراتيجيّات الخطاب: ٨٤.

٢٨- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي: ٢٣.

٢٩- ينظر: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب - دراسة معجمية: ٨٧.

٣٠- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي: ٢٤.

٣١- ينظر: م. ن: ٢٤.

٣٢- ينظر: م. ن: ٤٢.

٣٣- ينظر: م. ن: ٢٦.

٣٤- ينظر: م. ن: ٢٦.

٣٥- ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة: ١٦٤، أغسطس، ١٩٩٢م.

٣٦- ينظر: الواضح في النحو: ٤٣.

٣٧- الديوان: ٢/ ١٠٣.

٣٨- الديوان: ٢/ ١٣.

٣٩- م. ن: ٢/ ٣٠.

٤٠- ينظر: اللسانيات الخطابية في قصص الأنبياء (آدم وإبراهيم وعيسى) عليهم السلام في القرآن الكريم: ١١.

٤١- الديوان: ٢/ ٣٠.

٤٢- الديوان: ٥/ ١٩١.

٤٣- م. ن: ٧/ ٥٨.

٤٤- الديوان: ٦/ ٥٧-٥٨.

٤٥- م. ن: ٣/ ٧٨-٧٩.

٤٦- الديوان: ٣/ ٨٢.

٤٧- م. ن: ٣/ ٧٥.

٤٨- الديوان: ٢/ ١٩.

٤٩- م. ن: ٣/ ١٣٢.

٥٠- الديوان: ١/ ١٣٢.

٥١- ينظر: الإشاريّات ومرجعيّاتها الخطابية: ٢٢٠.

٥٢- الديوان: ١/ ١١٠.

٥٣- ينظر: النحو الوافي: ٢٥٥.

٥٤- الديوان: ٤/ ٤٩.

٥٥- م. ن: ٦/ ١٣٧.

٥٦- ينظر: الإشاريّات التداولية في شعر أحمد مطر: ٤٤٤.

٥٧- الديوان: ١/ ١٤٩.

٥٨- م. ن: ١/ ٤٦٣.

٥٩- م. ن: ١/ ٤٥٧.

٦٠- الديوان: ٧/ ١٢.

٦١- م. ن: ٢/ ٣٠١.

٦٢- م. ن: ٤/ ١٣٦.

٦٣- ينظر: التداولية أصولها واتجاهاتها: ٨١.

٦٤- ينظر: النظرية البراجماتية اللسانية: ٨٥.

٦٥- ينظر: الإشاريّات في شعر أحمد مطر: ٤٤٨.

٦٦- الديوان: ٦/ ١٨.

٦٧- م. ن: ٧/ ١٠٢.

٦٨- الديوان: ٧/ ٨٧.

٦٩- م. ن: ٣/ ٢٨-٢٩.

٧٠- م. ن: ١/ ١١٢.

٧١- الديوان: ١/ ٢٩٧.

٧٢- م. ن: ١/ ١٤٩.

٧٣- م. ن: ٤/ ٢٩٣-٢٩٤.

٧٤- الديوان: ١/ ٢٨٢.

٧٥- م. ن:٧/ ٨٧.

٧٦- م. ن: ٥/ ١٩٦.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١- استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي - لبيا، الطبعة الأولى.

٢- الإشاريّات التداولية في شعر أحمد مطر، طالب الدكتوراه: عبد الغفار فتاح حسن، أ. د. لخوش جار الله دزه بي، مجلة: كوفارى توزه ر/ زماره ٢/ به هارى ٢٠٢٠.

٣- الإشاريّات التداولية في المقال الصحفي الإسرائيلي، عزة علي إسماعيل، مجلة بحوث كلية الآداب - جامعة المنوفية، المجلد: ٣٢، العدد: ١٤٢، يناير ٢٠٢١.

٤- الإشاريّات ومرجعيّاتها الخطابية (أطروحة دكتوراه)، هناء جيبايكي إشراف: أ. د. الربعي بن سلامة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر.

٥- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٢.

٦- البعد التداولي للإشاريّات في سورة التوبة، سامية شوادر، مجلة المخبر، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر - بكسيرة، الجزائر، العدد الثاني عشر، ٢٠١٦.

٧- بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة: ١٦٤، أغسطس، ١٩٩٢م.

٨- التداولية، جورج يول، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى.

٩- التداولية أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى.

١٠- التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

١١- تلوين الخطاب، إميل بنفست، فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والتداولية والحجاج، صابر الحباشة، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ٢٠٠٧.

١٢- ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، جمعه وحققه وأشرف على

طبعه: د. إبراهيم السامرائي، د. مهدي المخزومي، د. علي جواد الطاهر، رشيد بكتاش، مطبعة الآداب البغدادية، ١٩٧٣.

١٣- علم النصّ، فان داك، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

١٤- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت٧١١ه)، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ه.

١٥- اللسانيات الخطابية في قصص الأنبياء (آدم وإبراهيم وعيسى) عليهم السلام في القرآن الكريم: ١١.

١٦- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب - دراسة معجمية، نعمان بوقرة، جدار للكتاب العالمي، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.

١٧- معالم التداولية في كتاب النظرات للمنفلوطي، عبد العزيز إبراهيم العزيزي، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠١٧.

١٨- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي (ت٣٩٥ه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩ه - ١٩٧٩م.

١٩- نسيج النصّ - بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى.

٢٠- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت٣٣٧هـ)، مطبعة الجوائب - قسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢ه.

٢١- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة.

٢٢- النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، محمود عكاشة، مكتبة الآداب، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.

٢٣- الواضح في النحو، محمد خيري الحلواني، دار المأمون للتراث، بيروت الطبعة السادسة، ١٤٢١ه - ٢٠٠٠م.

٢٤- الوظائف التداولية للخطاب السياسي وأبعادها الحجاجية، نور الدين أجعيط، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٦، الطبعة الأولى.